الخوارج

٨٥ — اقترن ظهور هذه الفرقة بظهور الشيعة ، فقد ظهر كلاهما كفرقة فى عهد على رضى الله عنه ، وقد كانوا من أنصاره ، وإن كانت الشيعة فكرتها أسبق من فكرة الخوارج .

ظهر الخوارج فى جيش على رضى الله عنه عندما اشتد القتال بين على ومعاوية ، فى صفين وذاق معاوية حر القتال ، وهم بالفرار ، حتى أسعفته فكرة التحكيم فرفع جيشه المصاحف ، ليحتكموا إلى القرآن ، ولكن عليا أصر على القتال ، حتى يفصل الله بينهما ، فخرجت عليه خارجة من جيشه تطلب إليه أن يقبل التحكيم ، فقبله مضطراً لا مختاراً ، ولما اتفق مع خصومه على أن يحكما شخصين أحدهما من قبل على والآخر من قبل معاوية اختار معاوية عمرو بن العاص وأراد على أن يختار عبد الله بن عباس ولكن الخارجة حملته على أن يختار أبا موسى الأشعرى ، وانتهى أمر التحكيم إلى النهاية التى انتهى إليها ، وهى عزل على وتثبيت معاوية ، واشتد بهذا التحكيم ساعد البغى الذى كان يقوده معاوية . ومن غريب هذه الخارجة التى حملت عليا على التحكيم وحملته على محكم بعينه — أن جاءت من بعد ذلك واعتبرت التحكيم جريمة كبيرة ، وطلبت إلى على أن يتوب عما ارتكب ، لأنه كفر بتحكيمه كما كفروا هم وتابوا . وتبعهم غيرهم من أعراب البادية ، وصار شعارهم « لا حكم إلا لله » وأخذوا يقاتلون عليا بعد أن كانوا يجادلونه ، ويقطعون عليه القول .

٨٦ — وهذه الفرقة أشد الفرق الإسلامية دفاعاً عن مذهبها ، وحماسة لآرائها ، وأشد الفرق تديناً فى جملتها وأشدها تهوراً واندفاعاً ، وهم فى اندفاعهم وتهورهم مستمسكون بألفاظ قد أخذوا بظواهرها وظنوا هذه الظواهر ديناً مقدساً ، لا يحيد عنه مؤمن ، وقد استرعت ألبابهم كلمة « لا حكم إلا لله » فاتخذوها ديناً ينادون به فكانوا كلما رأوا علياً يتكلم قذفوه بهذه الكلمة كما أشرنا .

وقد استهوتهم أيضاً فكرة البراءة من سيدنا عثمان ، والإمام علي والحكام الظالمين من بني أمية ، حتى احتلت أفهامهم واستولت على مداركهم استيلاء تاماً ، وسدت عليهم كل طريق يتجه بهم للوصول إلى الحق ، أو ينفذون منه إلى معاني الكلمات التي يرددونها ، بل إلى معاني حقائق الدين في ذاتها ، فمن تبرأ من عثمان وعلي وطلحة والزبير ، والحكام الظالمين من بني أمية سلكوه في جمعهم ، وأضافوا اسمه إلى أسمائهم ، وتسامحوا معه في مبادىء أخرى من مبادئهم ، وربما كانت أشد أثرا .

ولقد ناقشهم الحاكم العادل عمر بن عبد العزيز ، وكان من الخلاف بينه وبينهم أنه لم يعلن البراءة من أهل بيته الظالمين مع إقرارهم أنه خالف من سبقه من بني أمية ومنع استمرار ظلمهم بل رد المظالم التي ارتكبوها إلى أهلها ولكن استولت عليهم فكرة النطق بالتبرؤ ، فكانت هي الحائل بينهم وبين الدخول في طاعته والسير في لواء الجماعة الإسلامية .

٨٧ — وأنهم ليشبهون — في استحواذ الألفاظ البراقة على عقولهم ومداركهم — اليعقوبيين الذين ارتكبوا أقسى الفظائع في الثورة الفرنسية ، فقد استولت على هؤلاء ألفاظ الحرية والإخاء والمساواة . وباسمها قتلوا الناس ، وأهرقوا الدماء ، وأولئك استولت عليهم ألفاظ الإيمان ولا حكم إلا لله والتبرؤ من الظالمين ، وباسمها أباحوا دماء المسلمين ، وخضبوا الأراضي الإسلامية بنجيع الدماء وشنوا الغارة في كل مكان .

٨٨ — ولم تكن الحماسة والتمسك بظواهر الألفاظ وحدهما — ما امتاز به الخوارج ، بل هناك صفات أخرى منها حب الفداء والرغبة في الموت والاستهداف للمخاطر من غير داع قوي يدفع إلى ذلك ، وربما كان منشؤه هوساً عند بعضهم ، واضطراباً في أعصابهم لا مجرد الشجاعة وإنهم ليشبهون في ذلك النصارى الذين كانوا تحت حكم العرب بالأندلس إبان ازدهارها بالحضارة العربية ، فقد أصاب فريقاً منهم هوس جعلهم يقدمون على أسباب الموت وراء عصبية جامحة ، فأراد كل واحد منهم أن يذهب إلى مجلس القضاء ليسب (محمداً) ويموت ، فتقاطروا في ذلك أزواجاً أفواجاً حتى تعب الحجاب من ردهم ، وكان القضاء يصمون آذانهم ، حتى لا يحكموا بالإعدام ، والمسلمون مشفقون على هؤلاء المساكين ويظنونهم من المجانين(١) .

---

(١) الإسلام خواطر وسوانح للكونت دي كاستري ترجمة المرحوم فتحي زغلول .

وقد كان من الخوارج من يقاطع علياً فى خطبته ، بل من يقاطعه فى صلاته . ومن يتحدى المسلمين بسب على وعثمان . ورمى أتباعهما بالشرك . ولقد قتلوا عبد الله ابن خباب بن الأرت وبقروا بطن جاريته ، فقال لهم على كرم الله وجهه . ادفعوا إلينا قتلته ، فقالوا كلنا قتلته ، فقاتلهم على حتى كاد يبيدهم . ولم يمنع ذلك بقيتهم من أن يسيروا سيرهم ؛ وينهجوا مناهجهم ، ويتبعهم من هم على شاكلتهم من أعراب البادية الذين اعتراهم مثل ذلك الهوس الفكرى .

٨٩ — وإنه من الحق أن الإخلاص كان سمة الكثيرين منهم . ولكنه إخلاص يصاحبه الانحياز لناحية معينة قد استولت على مداركهم . وإنا نقص بعض قصصهم ليتبين مقدار انحياز تفكيرهم ومقدار إخلاصهم :

يروى أن عبد الله بن عباس لما وصل إليهم من قبل على وناقشهم رأى منهم جباهاً قرحة لطول السجود ، وأيدياً كثفنات الإبل عليهم قمص مرحضة (١) .

هذا مظهر من إخلاصهم ، ومع ذلك فالتحيز يسيطر عليهم فقد رأينا أنهم قتلوا عبد الله بن خباب لأنه لم يقل لهم : على مشرك . وأبوا أن يأخذوا تمر النصرانى بغير ثمن ، وإليك القصة كما جاءت فى الكامل للمبرد « من طريف أخبارهم أنهم أصابوا مسلماً ، ونصرانياً فقتلوا المسلم ، وأوصوا بالنصرانى خيراً ، وقالوا : احفظوا ذمة نبيكم ، لقيهم عبد الله بن خباب وفى عنقه مصحف ومعه امرأته ، وهى حامل ، فقالوا : إن الذى فى عنقك ليأمرنا أن نقتلك . . . قالوا : فما تقول فى أبى بكر وعمر ؟ فأثنى خيراً قالوا : فما تقول فى على قبل التحكيم وفى عثمان فى ست سنين (أى السنين الأولى لخلافته) فأثنى خيراً ، قالوا : فما تقول فى التحكيم ؟ قال : أقول علياً أعلم بكتاب الله منكم ، وأشد توقيا على دينه ، وأنفذ بصيرة ، قالوا : إنك لست تتبع الرجال على أسمائهم . ثم قربوه إلى شاطىء النهر فذبحوه . . . وساوموا رجلا نصرانياً بنخلة فقال : هى لكم . فقالوا : والله ما كنا لنأخذها إلا بثمن . قال : ما أعجب هذا أتقتلون مثل عبد الله بن خباب ولا تقبلون منا نخلة ! ! » .

٩٠ — ولماذا كانت هذه الصفات المتناقضة : تقوى وإخلاص وانحراف وهوس

---

(١) أى طاهرة — الكامل للمبرد ج ٢ ص ١٤٢ .

وتشدد وخشونة وجفوة وتهور فى الدعوة إلى ما يعتقدون وحمل للناس على آرائهم المحرفة المتحيزة بالعنف والقسوة ، من غير رفق ، وبحال لا تتفق مع سماحة الدين ، ولا مع ما يبعثه الإخلاص والتقوى من الرحمة فى القلوب ؟ .

السبب فى هذا فيما أعتقد أن الخوارج كان أكثرهم من عرب البادية ، وقليل منهم من كان من عرب القرى ، وهؤلاء كانوا فى فقر شديد قبيل الإسلام ، ولما جاء الإسلام لم تزد حالتهم الماديه حسناً ، لأنهم استمروا فى باديتهم بلأوائها وشدتها وصعوبة الحياة فيها . وأصاب الإسلام شغاف قلوبهم مع سذاجة فى التفكير وضيق فى التصور ، وبعد عن العلوم . فتكون من مجموع ذلك نفوس مؤمنة متعصبة لضيق نطاق العقول ، ومتهورة مندفعة لأنها نابعة من الصحراء ، وزاهدة لأنها لم تجد ، إذ النفس التى لا تجد إذا غمرها إيمان ، ومس وجدانها اعتقاد صحيح انصرفت عن الشهوات المادية وملاذ هذه الحياة ، واتجهت بكليتها إلى نعيم الآخرة .

ولقد كانت هذه المعيشة التى يعيشونها فى بيدائهم دافعة لهم على الخشونة والقسوة والعنف ، إذ النفس صورة لما تألف ، ولو أنهم عاشوا عيشة رافهة فاكهة فى نعيم ، أو فى نوع منه لخفف ذلك من عنفهم وألان صلابتهم ، ورطب شدتهم .

يروى أن زياد بن أبيه بلغه ، عن رجل يكنى أبا الخير من أهل البأس والنجدة أنه على رأى الخوارج فدعاه فولاه ورزقه أربعة آلاف درهم كل شهر ، وجعل عمالته فى كل سنة مائة ألف ، فكان أبو الخير يقول : ما رأيت شيئاً خيراً من لزوم الطاعة والتقلب بين أظهر الجماعة ، فلم يزل والياً حتى أنكر منه زياد شيئاً ، فتنمر لزياد فحبسه ، فلم يخرج من محبسه حتى مات(١) .

انظر إلى النعمة كيف ألانت من الطباع وهذبت من النفس وجعلت من هذا الرجل سمحاً رقيقاً بعد أن كان متعصباً عنيفاً .

٩١ — ونحن إن وصفنا الخوارج بالإخلاص فى خروجهم ، فليس معنى ذلك أنه إخلاص لا يوجد ما يشوبه ، بل إنه قد يوجد ما يرنقه ، ولا ننكر أن هناك أموراً أخرى غير اعتقاد الحق قد حفزتهم على الخروج ، ومن أعظم هذه الأمور التى حفزتهم على

---

(١) الكامل ج ٢ أخبار الخوارج .

الخروج غير الحق الذى اعتقدوه — أنهم كانوا يحسدون قريشا على استيلائهم على الخلافة واستبدادهم بها دون الناس ، الدليل على ذلك أن أكثرهم من القبائل الربعية التى قامت بينها وبين القبائل المضرية الإحن الجاهلية التى خفف الإسلام من حدتها ولم يذهب بكل قوتها بل بقيت منها أثارة غير قليلة مستمكنة فى النفوس ، وقد نظر فى الآراء والمذاهب من حيث لايشعر المعتنق للمذهب الآخذ بالرأى ، وأن الإنسان قد يسيطر على نفسه هوى يدفعه إلى فكرة معينة يخيل إليه أن الاخلاص رائده ، والعقل وحده يهديه ، وهذا أمر واضح فى أمور الحياة كلها ، فالإنسان ينفر من كل فكرة اقترنت بما يؤلمه . وإذا كان ذلك كذلك فلا بد أن نتصور أن « الخـــوارج » ، وأكثرهم ربعيون رأوا الخلفاء من « مضر » فنفروا من حكمهم واتجهوا فى تفكيرهم نحو الخلافة تحت ظل هذا النفور من حيث لايشعرون ، وظنوا أن ما يقولونه هو محض الدين ، وأنه لا دافع لهم إلا الإخلاص لدينهم .

٩٢ — والخوارج على هذا أكثرهم من العرب ، ولم يكن فيهم من الموالى إلا عدد قليل . مع أن آراءهم فى الخلافة من شأنها أن تجعل للموالى الحق فى أن يكونوا خلفاء عندما تتوافر شروطها ، إذ الخوارج لايقصرون الخلافة على بيت من بيوت العرب ، ولا على قبيل من قبيلهم ، بل لايقصرونها على جنس من الأجناس ، أو فريق من الناس .

والسبب فى نفور الموالى من مذهبهم أنهم هم أنفسهم مع هذه الآراء ينفرون من الموالى ، ويتعصبون ضدهم ، وقد روى ابن أبى الحديد أن رجلا من الموالى ، خطب امرأة من الخوارج فقالوا لها : فضحتنا . . . وربما لو تركوا تلك العصبية لتبعهم كثيرون من الموالى .

٩٣ — ومع أن الموالى فى الخوارج كانوا عدداً قليلا نرى لهم اثراً فى بعض فرقهم . فاليزيدية — وهم أتباع يزيد بن أبى أنيسة الخارجى ادعوا أن الله سبحانه وتعالى يبعث رسولا من العجم ينزل عليه كتاباً ينسخ بشرعه الشريعة المحمدية ، وذلك بلاشك رأى فارسى ، إذ الفرس هم الذين كانوا يحنون إلى نبى من قومهم .

و « الميمونية » أتباع « ميمون العجردى » أباحوا نكاح بنات الأولاد وبنات

أولاد الإخوة والأخوات ، وتلك آراء فارسية فالفرس المجوس هم الذين يبيحون تلك الأنكحة .

المبادئ التي تجمع فرق الخوارج :

٩٤ — من الكلام السابق عرفنا عقلية الخوارج وقبائلهم ، والآن نريد أن نعرف مبادئهم ، والحق أن مبادئهم مظهر واضح لتفكيرهم وسذاجة عقولهم ونظراتهم السطحية ، ونقمتهم على قريش ، وكل القبائل المضرية .

(أ) وأول هذه الآراء — وهو من بين آرائهم السديد المحكم — أن الخليفة لا يكون إلا بانتخاب حر صحيح ، يقوم به عامة المسلمين ، لا فريق منهم ، ويستمر خليفة ما دام قائماً بالعدل مقيماً للشرع ، مبتعداً عن الخطأ والزيغ ، فإن حاد وجب عزله أو قتله .

(ب) وثاني هذه الآراء أن بيتاً من بيوت العرب لا يختص بأن يكون الخليفة فيه ، فليست الخلافة في قريش كما يقول غيرهم ، وليست لعربي دون أعجمي . والجميع فيها سواء ، بل يفضلون أن يكون الخليفة غير قرشي ليسهل عزله أو قتله إن خالف الشرع وحاد عن الحق ، إذ لا تكون له عصبية تحميه ، ولا عشيرة تؤويه ، وعلى هذا الأساس اختاروا منهم « عبد الله بن وهب الراسبي » ، وأمروه عليهم وسموه « أمير المؤمنين » وليس بقرشي .

(ج) وإن « النجدات » من الخوارج يرون أنه لا حاجة إلى إمام إذا أمكن الناس أن يتناصفوا فيما بينهم ، فإن رأوا أن التناصف لا يتم إلا بإمام ، يحملهم على الحق فأقاموه جاز ، فإقامة الإمام في نظرهم ليست واجبة بإيجاب الشرع ، بل جائزة . وإذا وجبت فإنما تجب بحكم المصلحة والحاجة .

(د) ويرى الخوارج تكفير أهل الذنوب ، ولم يفرقوا بين ذنب وذنب ، بل اعتبروا الخطأ في الرأي ذنباً إذا أدى إلى مخالفة وجه الصواب في نظرهم ، ولذا كفروا علياً رضي الله عنه بالتحكيم ، مع أنه لم يقدم عليه مختاراً ، ولو سلم أنه اختاره فالأمر لا يعدو أنه اجتهاد قد أخطأ فيه إن كان التحكيم جانب الصواب ، فلجاجتهم في تكفيره رضي الله عنه دليل على أنهم يرون الخطأ في الاجتهاد يخرج من الدين ، كذلك كان شأن

« طلحة » و « الزبير » رضى الله عنهما وغيرهم من علية الصحابة الذين خالفوهم فى جزئية من جزئيات كانت نتيجة لاجتهادهم .

٩٥ — وأن هذا المبدأ هو الذى جعلهم يخرجون على جماهير المسلمين ، ويعتبرون مخالفيهم مشركين ، وأقضوا مضجع الحكام بسببه ، ولذا وجب علينا أن نبين الأدلة التى اتخذوها حجة لقولهم ، وهذه الأدلة قد ساقها « ابن أبى الحديد » فى كتابه « شرح نهج البلاغة » وهى أدلة كثيرة ساقها ؛ وإنها لتدل على مدى تفكيرهم .

منها قوله تعالى : « ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ، ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين » فجعل تارك الحج كافراً ، وترك الحج ذنب ، فكل مرتكب للذنب كافر .

منها قوله تعالى : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » وكل مرتكب للذنوب فقد حكم لنفسه بغير ما أنزل الله فيكون كافراً ، وقد كرر سبحانه مثل هذا النص فى أكثر من آية .

ومنها قوله تعالى : « يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ، فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم ، فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » قالوا والفاسق لا يجوز أن يكون ممن ابيضت وجوههم فوجب أن يكون ممن اسودت وجوههم ، ووجب أن يسمى كافراً .

ومنها قوله تعالى : « وجوه يومئذ مسفرة ، ضاحكة مستبشرة ، ووجوه يومئذ عليها غبرة ، ترهقها قترة ، أولئك هم الكفرة الفجرة » والفاسق على وجهه غبرة فوجب أن يكون من الكفرة .

ومنها قوله تعالى : « ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » وبهذا ثبت أن الظلم جحود وكفر ، ولا شك أن مرتكب الذنب ظالم (١) .

وكل هذه الدلائل تمسك بظواهر النصوص ، وأكثرها كان الحديث فيه عن مشركى مكة فهى أوصاف لهم . وفى آية الحج ليس الكفر وصفاً لمن لم يحج ، إنما الكفر فيها لمن أنكر فريضة الحج .

(١) ملخص من نهج البلاغة المجلد الثانى ص ٣٠٧ ، ٣٠٨ .

٩٦– ولأنهم يتمسكون بظواهر الألفاظ نرى « عليا » عندما ناقشهم فى هذا لم يجادلهم بالنصوص ، لأنهم لا يأخذون إلا بظواهرها ، بل كان يناقشهم بعمل الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومن ذلك قوله يخاطبهم :

« فإن أبيتم إلا أن تزعموا أنى أخطأت وضللت ، فلم تضلون عامة أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وتأخذونهم بخطئى ، وتكفرونهم بذنوبى ، سيوفكم على عواتقكم ، تضعونها مواضع البرء والسقم ، وتخلطون من أذنب بمن لم يذنب ، وقد علمتم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رجم الزانى المحصن ، ثم صلى عليه ثم ورثه أهله ، وقتل القاتل ، وورث ميراثه أهله ، وقطع يد السارق وجلد الزانى غير المحصن ثم قسم عليهما الفىء ، ونكحا المسلمات ، فآخذهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بذنوبهم ، وأقام حق الله فيهم ، ولم يمنعهم سهمهم من الإسلام ولم يخرج أسماءهم من بين أهله » .

ونرى فى ذلك الكلام القيم رداً مفحماً لهم فلم يستطيعوا أن يماروا فيه ، ولقد عدل رضى الله عنه عن الاحتجاج بالنصوص إلى الاحتجاج بالعمل الذى كان عليه النبى صلى الله عليه وسلم : لأن العمل لا يقبل تأويلا ، ولا يفهم إلا على وجهه الصحيح ، فلا يكون فيه مجال لنظراتهم السطحية ، وتفكيرهم الذى لا يصيب إلا جانباً واحداً ، ولا يتجه إلا إلى اتجاه جزئى ، وفى الاتجاه الجزئى فى فهم العبارات والأساليب بعد عن مرماها ومقصدها ، وفى النظرة الكلية الشاملة الصواب وإدراك الحق من كل نواحيه .

اختلاف الخوارج فيما بينهم :

٩٧ — ما أشرنا إليه هو جملة المبادىء التى اتفق أكثرهم عليها ، ولم يتفق أكثرهم فى غيرها ، بل كانوا كثيرى الخلاف ، يشجر الخلاف بينهم لأصغر الأمور ؛ وربما كان هذا هو السر فى كثير من انهزاماتهم مع قوة شكيمتهم فى القتال .

وكان المهلب بن أبى صفرة الذى نصب لقتالهم من قبل الأمويين يتخذ الخلاف بينهم ذريعة لتفريقهم وخضد شوكتهم ، وإذا لم يجدهم مختلفين دفع إليهم من يثير الخلاف بينهم .

يحكى « ابن أبى الحديد » أن حداداً من الأزارقة — وهم طائفة كبيرة من الخوارج — كان يصنع نصالا مسمومة فيرمى بها أصحاب المهلب فرفع ذلك إلى المهلب ، فقال : أنا أكفيكموه إن شاء الله تعالى . فوجه رجلا من أصحابه بكتاب وألف درهم إلى عسكر قطرى

ابن الفجاءة قائد الخوارج وأميرهم ، فقال له : ألق هذا الكتاب ومعه الدراهم فى المعسكر. واحذر على نفسك ، فمضى الرجل وكان فى الكتاب : « أما بعد فإن نصالك قد وصلت إلى وقد وجهت إليك بألف دينار فاقبضها وزدنا من النصال » فرفع الكتاب إلى « قطرى » فدعا الحداد : فقال: ما هذا الكتاب ؟ فقال لا أدرى !! قال ممن هذه الدراهم ؟ قال لا أعلم بها ، فأمر به فقتل . فجاء « عبد ربه الصغير » مولى « ابن قيس ابن ثعلبة» فقال قتلت رجلا على غير ثقة وبينة !قال قطرى فما حال الألف؟ قال يجوز أن يكون أمرها كذبا ، ويجوز أن يكون حقاً . فقال قطرى : إن قتل رجل فيه صلاح أمر غير منكر وللإمام أن يحكم بما يراه صالحاً ، وليس للرعية أن تعترض عليه ، فتنكر له مع جماعة معه ، وإن لم يفارقوه .

وبلغ ذلك الخلاف المهلب بن أبى صفرة فأراد أن يورث الخلاف ، وأن يزيد ناره احتداماً ، فدس إليهم رجلا نصرانياً جعل له جعلا يرغب فى مثله وقال له : إذا رأيت « قطرياً » فاسجد له ، فإذا نهاك فقل إنما سجدت لك ، ففعل ذلك النصرانى فقال « قطرى » إنما السجود لله ، فقال النصرانى : ما سجدت إلا لك ، فقال رجل من الخوارج إنه قد عبدك من دون الله ، وتلا قوله تعالى : (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون) فقال « قطرى » إن النصارى قد عبدوا « المسيح عيسى ابن مريم » فما ضر عيسى ذلك شيئاً ، فقام رجل من الخوارج إلى النصرانى فقتله فأنكر قطرى ذلك عليه ، وأنكر قوم من الخوارج على قطرى إنكاره .

وبلغ المهلب ذلك الخلاف أيضاً ، فأراد أن يزيد الأمر بينهم احتداما فوجه إليهم رجلا يسألهم ، فأتاهم ، وقال لهم : أرأيتم رجلين خرجا مهاجرين إليكم فمات أحدهما فى الطريق ، وبلغ الآخر إليكم ، فامتحنتموه ، فلم يجز المحنة ، ما تقولون فيهما ؟ فقال بعضهم : أما الميت فمن أهل الجنة ، وأما الذى لم يجز المحنة فكافر حتى يجيز المحنة ، وقال قوم آخرون : هما كافران ، فكثر الاختلاف ، واشتد ، وخرج قطرى إلى حدود اصطخر ، فأقام شهراً والقوم فى خلافهم(١) .

انظر إلى ذلك القائد العظيم كيف كان يعمل على إثارة الخلاف بينهم ، ويتم له ما

---

(١) هذه الأخبار مأخوذة بتصرف من شرح نهج البلاغة جـ ١ ص ٤٠١ .

يريد ، ثم يلقاهم بجنده وقد مزقهم الاختلاف الشديد ، وانقسموا فيما بينهم ، وإن ذلك الاختلاف كان يبدو فى مناقشاتهم فيما بينهم وبين غيرهم ، ومن الحق علينا أن نعطى القارىء وصفاً لمناقشاتهم ، وبياناً لمذاهبهم المختلفة .

مناقشاتهم :

٩٨ — اتصف الخوارج بصفات كثيرة جعلتهم قوماً خصمين يجادلون عن مذاهبهم ، ويلتقطون الحجج من خصومهم . ويستمسكون بآرائهم أشد الاستمساك ، حتى تكون نظراتهم جانبية متحيزة . وليست عامة مميزة موازنة بين الآراء المختلفة ، واضعة المقاييس لضبط الحق وتمييزه من الباطل .

وقد اتصفوا بالصفات الآتية فى مناقشاتهم وأقوالهم :

١ — اتصفوا بالفصاحة وطلاقة اللسان ، والعلم بطرق التأثير البيانى ، وكانوا ثابتى الجنان لايتحيزون أمام خصومهم ولاتأخذهم حبسة فكرية : « روى أن عبد الملك ابن مروان أتى برجل منهم . فرأى منه فهماً وعلماً ، وأربا ودهيا ، فطلب إليه الرجوع عن مذهبه فرآه مستبصراً محققاً ، فزاد عبد الملك فى طلبه الرجوع ، فقال الرجل : لتغنك الأولى عن الثانية ، وقد قلت فسمعت ، فاسمع أقل ، قال له قل . فجعل يبسط له قول « الخوارج » ، ويزين له من مذهبهم بلسان طلق ، وألفاظ بينة ، ومعان قريبة ، فقال عبد الملك : لقد كاد يوقع فى خاطرى أن الجنة خلقت لهم . وأنهم أولى بالجهاد معهم ، ثم رجعت إلى ما ثبت الله على من الحجة ، ووقر فى قلبى من الحق ، فقلت له : لله الآخرة والدنيا ، وقد سلطنى الله فى الدنيا ، ومكن لنا فيها . وبينا هما فى الحديث ، إذ دخل على عبد الملك ابن له باكياً ، فشق ذلك على عبد الملك فأقبل عليه الخارجى ، فقال له : دعه يبك ، فإنه أرحب لشدقه ، وأصح لدماغه وأذهب لصوته ، وأحرى ألا تأبى عليه عينه إذا حضرته طاعة ربه ، فاستدعى عبرته ! فقال له عبد الملك : أما يشغلك ما أنت فيه ، فقال : ماينبغى أن يشغل المؤمن عن قول الحق شىء . فأمر عبد الملك بحبسه ، وقال معتذراً : لولا أن تفسد بألفاظك أكثر رعيتى ماحبستك . . من شككنى ووهمنى حتى مالت بى عصمة الله ، فغير بعيد أن يستهوى من بعدى (١) .

٢ — وكانوا مع فصاحتهم يطلبون علم الكتاب والسنة ، وفقه الحديث وآثار

(١) الكامل للمبرد ج ٢ ص ١١٥ .

العرب فى ذكاء شديد وبديهة حاضرة، ونفس متوثبة ، يروى أن نافع بن الأزرق أمير الأزارقة كان ينتجع عبد الله بن عباس فيسأله . . سأله مرة عن معنى قوله تعالى : (والليل وما وسق)، فقال ابن عباس : وماجمع ، فقال : أتعرف ذلك العرب ؟ فقال : نعم . . أما سمعت لقول الراجز :

إن لنا قلائصاً حقائقاً   مستوسقات لو يجدن سائقا

وسأله مرة قائلا : أرأيت نبى الله سليمان صلى الله عليه وسلم مع ما خوله الله وأعطاه كيف عنى بالهدهد على قلته وضآلته ، فقال ابن عباس : إنه احتاج إلى الماء ، والهدهد فناء الأرض له كالزجاجة يرى باطنها من ظاهرها فسأل عنه لذلك . فقال ابن الأزرق : قف يا وقاف ، كيف يبصر ما تحت الأرض والفخ يغطى له بمقدار إصبع من التراب فلا يبصره حتى يقع فيه ؟ فقال ابن عباس : ويحك يابن الأزرق أما علمت أنه إذا جاء القدر غشى البصر .

فهم كانوا يحاولون أن يعرفوا علم القرآن والسنة من أهل الخبرة ولكن لأن أنظارهم جانبية لم ينتفعوا به انتفاعاً كاملا .

٣ — كانوا يحبون الجدل والمناقشة ومذاكرة الشعر وكلام العرب ، وكانوا يذاكرون مخالفيهم حتى فى أزمان القتال ، فقد نقل ابن أبى الحديد عن الأغانى : كان « الشراة » أى الخوارج فى حرب المهلب وقطرى بن الفجاءة يتواقفون ، ويتساءلون بينهم عن أمر الدين ، وغير ذلك ، على أمان وسكون ، فتواقف يوماً عبيدة بن هلال اليشكرى من الخوارج مع أبى حرابة التميمى من جيش الجماعة فقال عبيدة : يا أبا حرابة إنى سائلك عن أشياء ، أفتصدقنى فى الجواب عنها ؟ قال : نعم ، إن ضمنت لى مثل ذلك . قال : قد فعلت . قال : قل ، فسل ما بدالك ، قال : فما تقولون فى أئمتكم ! قال يبيحون الدم الحرام . قال ، ويحك فكيف فعلهم فى المال ؟ قال يجنونه من غير حله ، وينفقونه فى غير وجهه . . قال فكيف فعلهم فى اليتيم ؟ قال : يظلمونه فى ماله ويمنعونه حقه ، قال ويحك يا أبا حرابة أمثل هؤلاء تتبع ؟ .

ونرى من هذا أن حب المناقشة والمناظرة قد استولى عليهم حتى كانوا يقفون القتال مع مقاتليهم ليساجلوهم الآراء والأفكار .

٤ — وقد كان التعصب يسود جدلهم ، فهم لا يسلمون لخصومهم ولا يقتنعون بفكرة مهما تكن قريبة من الحق، أو واضحة الصواب ، بل لا تزيدهم قوة الحجة عند خصومهم إلا إمعاناً فى اعتقادهم ، وبحثاً عما يؤيده ، والسبب فى ذلك استيلاء أفكارهم على نفوسهم ، وتغلغل مذاهبهم فى أعماق قلوبهم ، واستيلاؤها على كل مواضع تفكيرهم وطرق إدراكهم ، وكان فيهم مع ذلك لدد وشدة فى الخصومة تمثل نزعتهم البدوية .

وقد كان ذلك من أسباب تحيزهم إلى جانب فكرة واحدة والنظر إليها من هذا الجانب وحده غير معتبرين سواه .

ولقد دفعتهم شدة رغبتهم فى نصر مذهبهم إلى أن يكذبوا أحياناً على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى أنه يروى عن خارجى تاب أنه دعا العلماء لأن ينظروا فى أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن « الخوارج » كانوا إذا لم يجدوا دليلا نسبوا للرسول كلاما .

٥ — وكانوا كما أشرنا يتمسكون بظواهر القرآن ، ولا يتجاوزون ذلك الظاهر إلى المرمى والمقصد والموضوع وما يظهر لهم بادى الرأى يقفون عنده ولا يحيدون عنه قيد أنملة .

وأنهم كانوا يستخدمون الظاهر من غير تحر فى دفع التهم عما ينسب إلى بعضهم من جرائم ، يروى أن عبيدة بن هلال اليشكرى الذى ذكرنا جداله مع أبى حرابة آنفا ، اتهم بامرأة حداد ، رأوه مراراً يدخل داره بغير إذنه ، فأتوا قطرى بن الفجاءة الذى نصبوه أميراً لهم ، فذكروا له ذلك ، فقال لهم : إن عبيدة من الدين بحيث علمتم ، ومن الجهاد بحيث رأيتم . فقالوا : إنا لا نقاره على الفاحشة . فقال : انصرفوا ! ثم بعث إلى عبيدة فأخبره ، فقال : بهتونى يا أمير المؤمنين كما ترى . قال : إنى جامع بينك وبينهم فلا تخضع خضوع المذنب ، ولا تتطاول تطاول البرىء ، فجمع بينهم فتكلموا فقام عبيدة فقال : « بسم الله الرحمن الرحيم، **إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم ، بل هو خير لكم ، لكل امرىء منهم ما اكتسب**

من الإثم والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم ٠٠ » إلى آخر الآيات الكريمات ، فلما سمعوها بكوا وقاموا إليه واعتنقوه ، وقالوا : استغفر لنا(١) .

وبذلك أبعدهم بتلاوة الآية عن أن ينظروا فى قضية الاتهام . أهى صادقة فيستحق العقاب ، أم هى كاذبة فيكونوا قد بهتوه ، لم يفكروا فى هذا إزاء ظواهر النص الكريم من غير أن يطبقوه ، وبذلك أصدروا الحكم بالبراءة من الفاحشة من غير دليل بعد أن اتهموه بها أيضاً من غير دليل ، وانتقلوا من النقيض إلى النقيض من غير سبب قوى يقتضى ذلك العدول السريع .

(١) الكامل للمبرد جـ ٢ ص ٢٢٥ ، ٢٢٦ .